ماذا تريد إيران؟

مصطفى سالم

خبير متخصص في الأمن الإقليمي
والشؤون الإيرانية

يختزل خطاب مرشد جمهورية إيران الإسلامية، علي خامنئي، يوم 4 يونيو الماضي في ذكرى مرور ربع قرن على وفاة مؤسس الجمهورية الإمام الخميني، والذي قال فيه إن "الكلمة الفصل في سياسات المنطقة باتت في يد إيران"، حقيقة ماذا تريد إيران في منطقة الشرق الأوسط على وجه الدقة؛ فهي تريد أن تكون الدولة الأهم وصاحبة الكلمة الفصل، بغض الطرف عن علاقاتها التعاونية أو العدائية مع الأطراف الدولية أو الإقليمية.

لم يكن مفاجئاً تصريح خامنئي، فليس جديداً أن يكون هدف إيران هو أن تكون "الدولة الأهم" بالمنطقة. ساد ذلك قبل عهد الشاه وخلاله وبعده كذلك، وما تغير فقط منذ ثورة 1979، هو اعتماد المنهج المذهبي وسياسة تصدير "الثورة" كأحد أبرز المبادئ الاستراتيجية الكبرى للدولة الإيرانية.

تتأسس سياسات إيران من منظور أنها دولية توسعية، ترى في نفسها مركز الثقل الإقليمي الرئيسي، ولا ترى أهمية لأية قوة أو مراكز أخرى بالمنطقة، فهي تسعى لزعامة المنطقة من منطق التأثير والقوة العسكرية؛ فقد كانت حامية المصالح البريطانية والأمريكية وشرطي الخليج زمن الشاه، وهي تسعى منذ الثورة لأن تكون الدولة الأهم بالمنطقة، وهو ما فشلت فيه حتى نهاية حربها مع العراق، ثم بدأ يعود دورها من خلال خطابات مناوئة للولايات المتحدة، وهو تراجع بعد هجمات 11 سبتمبر 2001، وحدوث التوافق الإيراني مع الولايات المتحدة في الحرب ضد أفغانستان وفي غزو العراق، ثم اكتسبت دورها كما تريده وتتصوره على حساب العراق أيضاً منذ احتلال الأمريكي له في عام 2003، إذ برزت إيران كقوة نافذة ورئيسية بالمنطقة.

واليوم ثمة توافق بين طهران وواشنطن حول تنسيق الانسحاب الأمريكي من أفغانستان، بعد أن باتت إيران شبه حارس على العراق مرحلياً. لكن بين تعاون الطرفين من أجل الحرب والتنسيق بينهما للانسحاب؛ **كان نفوذ إيران قد توغل وتوسع حتى بلغ سواحل البحر المتوسط، في توسع غير مسبوق لم تعرفه إيران سوى مرتين سابقتين في التاريخ، في عصر الدولة الساسانية التي تأسست عام 226م، والدولة الأخمينية التي تأسست عام 522م وتمكنت من غزو مصر لفترة وجيزة عام 525م.**

أولاً: تفكيك الاستراتيجية الإيرانية

لا تتمدد إيران من أجل التمدد، وإنما لتحقيق أهداف داخلية تتمثل في بقاء نظام الثورة، وطرح نفسها باعتبارها القوة الإقليمية الرئيسية وصاحبة النفوذ في الشرق الأوسط، أي تحقيق الهدف الاستراتيجي الدائم، وهو إثبات أنها الدولة الأكثر نفوذاً وأهمية عن سائر دول المنطقة.

وترتكز سياسات النظام الإيراني لتحقيق هذين الهدفين على عدة عوامل، من أبرزها:

1- الإبقاء المتعمد على الحالة "الثورية":

يتعمد نظام الحكم في إيران منذ الثورة، وبإرادته، عدم الانتقال من حالة

الثورة إلى حالة الدولة. فمع أن إيران دولة مكتملة الأركان بالفعل، إلا أنها تتعمد الحياة في دور "الحالة الثورية" التي تسمح للنظام الإيراني ولمؤسسات الدولة التي بنيت على أساس ثوري في البقاء والاستمرارية والسيطرة على المجتمع والاقتصاد والسياسة من منظور عقائدي. فمشروعية النظام ترتبط بمنظومة "ثورية" أسست نظام "ولاية الفقيه"، ومن غير المسموح العبث بمرتكزاتها أو بالنظرية التي قامت عليها.

ويمتد تأثير "الحالة الثورية" إلى الخارج أيضاً؛ إذ يقدم الولي الفقيه نفسه بأنه "إمام كل المسلمين"، وتُستخدَم القوة الناعمة في تصدير المذهب الشيعي الإثنى عشري، وتقيم إيران مؤسسات ومنظمات شيعية في العديد من الدول، في مسعى لتأكيد قدراتها الدينية والثقافية، ومحاولة التغلب على المرجعية الشيعية الأصلية في النجف الأشرف.

2 ـ تكريس البعد المذهبي وليس القومي:

ثمة هاجس يتملك إيران، ولا تستطيع الفكاك منه بسهولة، هو أنها (دولة كلما كبرت في العمر كلما تقلصت في الحجم). وينعكس ذلك في سياساتها بالدخل والخارج، استناداً إلى البعد الديني المذهبي لا القومي.

داخلياً، يعد الفرس – كقومية - أقلية من حيث العدد، وتحتوي إيران أقليات من قوميات وإثنيات عدة يقطن معظمهم أطراف الدولة، ويرتبطون قومياً بدول أخرى. فالأقلية الأذرية ترتبط بأذربيجان التي تعقد سنوياً ما يسمى "البرلمان الأذري الموحد" الذي يشارك فيه أذريون إيرانون؛ والأقلية الكردية ترتبط بالأكراد في سائر دول المنطقة، بل إن محاولات الأكراد تاريخياً لتأسيس "دولتهم" كانت تنطلق من إيران (مثل جمهورية مهاباد الكردية التي تفككت بعد 11 شهراً من قيامها في عام 1946 في أقصى شمال غرب إيران). أما العرب "الأحواز" فيسكنون منطقة شديدة الحساسية حيث النفط والارتباط بجنوب العراق في منطقة كان يطلق عليها سابقاً "خليج البصرة"؛ وثمة أقلية بلوشية في الشمال الغربي ترتبط بباكستان.. إلخ.

إن هذه التركيبة الديموغرافية لا تسمح ببقاء دولة إيران كما هي اليوم، إذا فتح باب التقسيم بالمنطقة على أساس قومي؛ ولذا يُعلِي النظام الإيراني البعد المذهبي "الشيعي" على حساب البعد القومي، لأن هذا ما يضمن له البقاء ووحدة الدولة، لاسيما أن أغلب المواطنين من كافة هذه الأقليات من الشيعة.

يدرك الإيرانيون أن الإمبراطورية الفارسية تراجعت سابقاً لأنها تمددت بشكل واسع وسط تداخل قومي وعرقي

يتعمد نظام الحكم في إيران، وبإرادته، عدم الانتقال من حالة الثورة إلى حالة الدولة. فمع أن إيران دولة مكتملة الأركان بالفعل، إلا أنها تتعمد الحياة في دور "الحالة الثورية".

كبير، ما أدى إلى بروز النزعات الاستقلالية، ويدرك نظام "ولاية الفقيه" خصوصية ما تمتعت به إيران منذ تحولها للمذهب الشيعي في عهد الدولة الصفوية لتكون في مواجهة "دولة الخلافة"؛ فكلاهما هاجسان يبقيان النظام الحالي مسكوناً بإعلاء البعد المذهبي الموحد وليس البعد القومي المفرق.

ويبرر هذا البعد المذهبي كذلك التمدد الإيراني الخارجي، ومحاولة الريادة الدينية، وتأسيس كيانات شيعية "فارسية لا عربية" مثل حزب الله في لبنان، واحتضان الحوثيين في اليمن منذ تسعينيات القرن الماضي، والتدخل في شؤون بعض الدول العربية لتحقيق مصالحها من منطق أنها "حامية الشيعة" في العالم.

3 ـ تقديم إيران نفسها كقوة كبيرة لا متوسطة:

إن هدف تمديد النفوذ جعل إيران لا تقدم نفسها، إقليمياً ودولياً، في سياق حجمها الطبيعي، الذي لا يزيد عن كونها دولة متوسطة القوة، بل كقوة كبرى تتحرك في سياساتها الخارجية وفق ذلك، وتريد من الآخرين التعامل معها على هذا الأساس.

هذه الرؤية المتضخمة للذات جعلت إيران تسعى لامتلاك عناصر القوة الشاملة، وحفزتها نحو تحقيق تقدم صناعي وعلمي وتكنولوجي ملحوظ، وتوجيه خطابها الإعلامي باللغة الفارسية عبر مراكز إعلامية وقنوات فضائية تملأ ساحة الإعلام العالمي.

وبالفعل حققت إيران بعض الإنجازات في إظهار نفسها "قوة كبرى"، فهي تفتخر بأنها أجبرت القوى الكبرى على التفاوض معها بشأن البرنامج النووي، وهي تقيم علاقات قوية جداً مع الصين وروسيا، وتقدم نفسها أمام القوى الغربية باعتبارها الضامن لمصالحها في الشرق الأوسط، وتمثل في الوقت ذاته ورقة روسية وصينية للنفوذ في المنطقة، إذ تدرك روسيا أن إضعاف إيران والقضاء على نظام بشار الأسد إنما يعني القضاء على النفوذ الروسي بالمنطقة.

وعلاوة على ذلك، فثمة علاقات قوية بين إيران والقوى الآسيوية الصاعدة مثل الهند وكوريا الجنوبية، إضافة إلى كوريا الشمالية. كما أقامت إيران علاقات قوية مع بعض دول أمريكا اللاتينية والمكسيك، ونسجت علاقات وثيقة مع دول أفريقية عديدة عبر وكلائها اللبنانيين، وأوجدت نفسها في منطقة القرن الأفريقي وعند مداخل البحر الأحمر ومضيق باب المندب، إلى جوار إسرائيل والدول الغربية.

ثانياً: تحركات إيران الراهنة

تحركت إيران "الثورة" وتمكنت من بسط نفوذها في عموم المنطقة، وفق هذه العوامل السابقة، من العراق وصولاً لجنوب لبنان، وداخل الأراضي الفلسطينية، وداخل اليمن ومنطقة القرن الأفريقي، وصولاً إلى السودان وحتى غرب أفريقيا. وسعت للتأثير سلبياً على مصر، بهدف إضعاف قلب المنطقة، وساعدها على ذلك تراجع التأثير المصري تماماً في أواخر عهد نظام مبارك، لأنه كلما ضعف القلب

"مصر" كلما قوي الطرف "إيران"، وشاكست السعودية في مسألة أمن الخليج، لأن السعودية أضحت هي المنافس الرئيسي لإيران في المنطقة.

1 ـ المأزق الإيراني الراهن:

بلغت إيران نفوذاً كاد يجعلها بالفعل الدولة "الأهم" بالمنطقة، وباتت على وشك أن تكون معبراً إلزامياً في الملفات كافة، لكن التداعيات المتقلبة في مرحلة ما بعد الثورات العربية وحتى اليوم، لاسيما ما يدور داخل سوريا، وما وصل إليه العراق حتى سيطرة تنظيم "داعش" على أراض سورية وعراقية، وعودة المحور المصري ـ الخليجي للتأثير مجدداً... كلها أسباب وضعت هدف إيران الأكبر أمام تحدٍ حقيقي، إذ يبدو أن النفوذ الواسع لإيران بدأ يتلاشى بالفعل، بل إن تحجيم هذا النفوذ بات هدفاً للتحركات الدولية والعربية بالمنطقة خلال الشهر الماضي.

وربما يخطئ كثيرون ممن يرون أن مفاوضات القوى الكبرى مع إيران هي مقدمة لصفقة أمريكية ـ إيرانية بالمنطقة. وحتى لو كانت كذلك، فإن واشنطن تعمل على تقزيم دور إيران، ولن تسمح بأي حال بامتلاكها قدرات نووية تؤهلها لأن تكون دولة نووية مسلحة، فتحجيم إيران إقليمياً هو جزء من مساومات الملف النووي وإجبار طهران على تقديم تنازلات بمقابل أقل كثيراً مما تتوقعه.

وتشير التطورات الإقليمية الأخيرة إلى النزوع نحو هذا التوجه؛ فلم تدع إيران على الرغم من طلبها لأن تكون جزءاً من الائتلاف الدولي الذي أعلنته إدارة الرئيس الأمريكي، باراك أوباما، من أجل محاربة "داعش"، وتم تغييبها سابقاً عن مؤتمر جنيف الخاص بالوضع في سوريا. ولم تنل إيران اعترافاً دولياً بأنها "الدولة الأهم" بقدر ما أنها تعد جزءاً من المشكلة والحل في آن واحد.

لقد فقدت طهران كثيراً من أوراق نفوذها، فخسرت معركة قلب نظام الحكم في البحرين، وضعفت علاقاتها بتنظيمات "الإسلام السياسي" في الأراضي الفلسطينية، ولم تتمكن من تثبيت نفسها زعيمة للشيعة على حساب النجف، خصوصاً مع بروز دور المرجع الشيعي آية الله علي السيستاني في إطاحة رجل إيران الأقوى، رئيس الوزراء السابق، نوري المالكي.

وها هو المحور الإيراني السابق يتلقى صفعات موجعة، فإيران تستنزف قدراتها داخل سوريا، ومعها حليفها الأقوى حزب الله، وحركة حماس تم إضعافها نسبياً عبر حرب إسرائيل الأخيرة ضد قطاع غزة، وسوريا ذاتها لم تعد محور الحركة الإيرانية بالمنطقة.

> **فقدت طهران كثيراً من أوراق نفوذها، فخسرت معركة قلب نظام الحكم في البحرين، وضعفت علاقاتها بتنظيمات "الإسلام السياسي" في الأراضي الفلسطينية، ولم تتمكن من تثبيت نفسها زعيمة للشيعة على حساب النجف.**

2- دوائر الحركة الإيرانية المتوقعة:

يدرك الإيرانيون أن الحرب ضد "داعش" ليست موجهة فقط للتنظيم الإرهابي، ولكن أيضاً لتحجيم نفوذهم بالمنطقة، فقد أكد أوباما أن الحرب ضد "داعش" سوف تمتد إلى سوريا، وأنه حان الوقت لانتقال السلطة من الأسد إلى أطراف توافقية، ووافق الكونجرس على تسليح وتدريب المعارضة السورية المعتدلة بمشاركة أطراف عربية أبرزها السعودية.

ويبدو أن الحركة الإقليمية في الفترة المقبلة سوف تسير نحو التخلص من "داعش" بالعراق، وهو ما يتوافق مع إيران، فليس من مصلحتها استمرار اشتعال هذه الجبهة القريبة منها، خاصة مع ضمان بقاء نفوذها قوياً داخل العراق.

أما سوريا فسوف ينتقل إليها تنظيم "داعش" بمعظم قواته بعد ضربه بالعراق، وسوف يحدث ما يشبه فراغاً سنياً مع توقع انتقال جزء من صحوات العراق والطريقة النقشبندية وجزء من حزب البعث السابق وبعض المقاتلين المتطرفين لقتال "داعش" في سوريا. وسوف تؤدي مجمل هذه التحركات لاحقاً إلى سقوط الأسد وتحول المنطقة الكردية السورية إلى ما يشبه الالتحام مع كردستان العراق.

ما سبق يعني القضاء على أقوى أوراق إيران الإقليمية، حيث سيتقلص نفوذها داخل سوريا ويستنزف حزب الله، ولن تقوى على تحديد أطر الحركة في المشرق العربي، ولن تتمكن مثلاً من إشعال الوضع في هضبة الجولان السورية المحتلة.

وما سوف يتبقى لإيران ثلاث دوائر أساسية للحركة الإقليمية، أولها: اليمن، فقبل يوم واحد من مؤتمر جدة لمكافحة التنظيمات الإرهابية، بمشاركة 12 دولة، يوم 11 سبتمبر 2014، كانت إيران قد حركت جماعة الحوثي إلى قلب العاصمة صنعاء. ومن المتوقع أن تبقى اليمن ورقة إيرانية لإثبات الحضور الإقليمي.

الدائرة الثانية هي أمن الخليج، حيث قد تعمد إيران إلى تحريك الأقليات الشيعية داخل بعض دول الخليج لإثارة المشكلات، كجزء من محاولة المساومات مع دول الخليج حول الترتيبات الإقليمية اللاحقة.

أما الدائرة الثالثة، فهي دول الجوار المباشر، وتحديداً أفغانستان، حيث دور إيران في تنسيق الانسحاب الأمريكي وما بعده، والعراق التي ستبقى محل نفوذ إيراني كبير، وتركيا تلك الدولة "الوظيفية" مثل إيران، فكلاهما حاول، ويحاول، أن يكون أداة الدول الكبرى "الوظيفية" بالشرق الأوسط.

أخيراً، يجوز القول إن التحركات الدولية والعربية الجديدة بمنطقة الشرق الأوسط لا تتوافق مع حركة إيران وأهدافها الإقليمية، وإن جزءاً منها موجه لتحجيم نفوذ إيران، التي يبدو أن خياراتها باتت محدودة، وأنها سترضى في محصلة هذه التوازنات الإقليمية بالدور الوظيفي المطلوب منها، شاءت ذلك أم أبت.